تولستوى الحـــائر (*)

للأســـتاذ محمود الخفيف

(تتمة ما نشر فى العدد الماضى)

ما الحياة إلا وهم . وما سعينا فيها إلا عبث . وما أنفسنا وأولادنا إلا طعام للدود . وما مسراتنا وملاهينا إلا كأصوات الخائفين من الأطفال فى ظلام الغابة اللقاء يدرأون بها عن أنفسهم الخوف . وما ذلك الذى نسميه فى الحياة جمالا إلا غرور ، إن كل ذلك إلا باطل ؛ وإن هو إلا اللاشىء . ذلك ما أفضى به إليه تأمله ، وذلك مايعذبه ويفزعه ويحيطه باليأس من جميع أقطاره وليته ينسى ! ولكن أنى له النسيان وهذه الحياة نفسها

(*) من كتاب « تولستوى » الذى يظهر بعد أيام عن دار الرسالة بالقاهرة .

تذكره أبداً بفزعه الأكبر منها ؛ وهو ما فكر فيها لمجرد الفكر فى ذاته ، ولكن شيئاً مبهماً خفياً ظل يوجه نفسه هذه الوجهة منذ حداثته ، لا ينقطع عنه إلا ليعود إليه أقوى مما كان ، وما زال حتى وقف به على حافة الهاوية ...

وما قصر أو تهاون فى درس أو قعد عن استقصاء . قال : « ولكنى ربما كنت قد مهوت عن شىء أو أخطأت فهم شىء . ذلك ما تحدثت به إلىّ نفسى مراراً ؛ فليس من الممكن أن تكون مثل هذه الحال من اليأس أمراً طبيعياً فى الإنسان . ثم بحثت عن تفسير لهذه المسائل فى كل ناحية من نواحى المعرفة بلغها الناس ، وبحثت بحثاً مؤلماً طويلا ، لا لمجرد الفضول والنظر ، وقضيت فى بحثى الشاق زمناً ، بالنهار وبالليل ، أجدُّ كما يجد من أشرف على الهلاك حين يطلب النجاة ؛ فلم أعد من ذلك بطائل »

لم يدع شيئاً من العلوم النظرية ولا من العلوم التجريبية ، ولكنه لم يجد فى العلم بغيته . فما بلغ العلماء من العلم إلا بعض ما يتصل بأبحاث المختصين والمحترفين ، أما ماله صلة بالمشكلة الأساسية وهى مشكلة الحياة ، فقد أهملوه أو جهلوه . يقول عن العلماء « إنهم هكذا يجيبونك : أما عن سؤالك : ماذا أنت ولم تعيش ، فليس لدينا جواب ، وليس هذا مما نشغل أنفسنا به . أما إذا أردت أن تعلم قوانين الضوء أو قانون الاتحاد الكيمائى أو غيرها فلدينا أجوبة واضحة محددة عن ذلك لا تقبل الجدل » .

ولم يدع شيئاً مما له فى الفلسفة صلة بمسائل الحياة ، فقرأ سقراط وبوذا وسليمان الحكيم وشوبنهاور واضرابهم ، ولكنه لم يرجع من فلسفتهم إلا « بأن كل شىء فى الحياة عبث ، وأن السعيد هو ذلك الذى لم يولد » .

ماذا يقول سقراط ؟ أليس هو القائل : « إننا نقرب من الحقيقة كلما أخذنا فى الابتعاد عن الحياة ، وأن حياة الجسد شر وباطل ؛ وعلى ذلك فالقضاء على حياة الجسد من النعيم ، وينبغى علينا أن نطلبه ؟ » وماذا يقول بوذا ؟ أليس هو القائل : « إن من المستحيل أن نعيش وفى نفوسنا أن الألم أمر لابد منه ، وأننا سوف يلحقنا الضعف ويصيبنا الكبر ويدركنا الموت .. ألا إنه يجب علينا أن نتخلص من هذه الحياة ؟ » .

وماذا يقول سليمان ؟ أليس هو القائل « عبث فى عبث وباطل فى باطل ، وماذا يجنى الإنسان من عمله تحت الشمس ؟ يمضى

أن هذا يجرى فيما وردت بحله نصوص (تفصيلية) محكمة فى الكتاب والسنة كما هو الحال فى تعدد الزوجات (وليست هذه النصوص — فيما أعتقد — موضع خلاف بينى وبين الأستاذ عبد المتعال) ، ولا تفيد عباراتهم جريانه الا فيما هو من قبيل « المصالح المرسلة » التى لم يشهد لها الشارع بحل ولا بحرمة فتكون — قبل نهي ولى الأمر — على أصل الأباحة ، أو « سد الذرائع » بالنهى عما يدخل تحت نصوص (أجمالية) بالإباحة إلا أنه يتخذ ذريعة لارتكاب محرم . والحرمة المستفادة من نهى ولى الأمر فى هذه المواضع وما شابهها تكون مستندة فى الواقع إلى دليل عام من الكتاب أو السنة ، فلا يقال إنها شرعت بنهى ولى الأمر ابتداء . على أن مسألة نهى ولى الأمر عن المباح — حتى فى نطاق هذا التحديد الذى بيناه — مسألة خلافية ، القول فيها طويل والرأى غير مستقر ؛ نهى ، من كل الوجوه ، ليست بالذى يصح أن يعول عليه فى مثل هذا الباب .

أما ما استشهد به من موضوع « زراعة القطن » فلا يصلح للاستشهاد لأنه قياس مع الفارق الكبير ، وهذا ظاهر .

ابراهيم زكى الدين بدوى
المتخصص فى الشريعة الإسلامية والقانون
من جامعات الأزهر وباريس ونؤاد

جيل ويأتى جيل غيره والأرض هى الأرض قائمة أبداً ؛ وكل ما كان هو ماسوف يكون ، وما عمل هو ما سوف يعمل ؛ ولا جديد تحت الشمس . ولن يذكر ما مضى من الأشياء ، وكذلك ما هو آت فسوف لا يذكره من يأتى بعده » .

وماذا قال شوبنهور ؟ أليس هو القائل : « الحياة هى ذلك الذى كان يجب ألا يكون ... هى الشر ؛ وإن انتهاءنا إلى اللاشىء هو الخير الوحيد فيها » .

وهذه الحكمة الهندية القديمة كيف تصور الحياة ؟ « كان سكياموني أميراً شاباً يعيش عيشة سعيدة حُجب عنه العلم بالمرض والكهولة والموت . وخرج الأمير ذات يوم للنزهة فبصر بشيخ فقد أسنانه ، يتعثر فى مشيته ، ويبعث منظره الرعب فى النفس ، فسأل ذلك الأمير الذى لم يكن له علم بالشيخوخة حتى ذلك اليوم سائق عربته ، وقد أخذه العجب : ماذا يكون ذلك ؟ وكيف وصل الرجل إلى هذه الحال التعسة الكريهة ؟ ولما علم الأمير أن ذلك حظ الناس جميعاً ، وأنه سوف يصيبه لا محالة يوماً ما ، لم يستطع أن يستمر فى نزهته ، وأمر سائقه فعاد به إلى القصر ليتفكر فى هذه الحقيقة . ثم أغلق من دونه الأبواب وجعل يتفكر . ويرجح أنه وجد عزاء لنفسه ؛ فقد خرج ثانية للتنزه مبتهجاً سعيداً ، ولكنه أبصر هذه المرة مريضاً منهدماً أعشى العينين مرتعش البدن ، ولما لم يكن للأمير علم بالمرض فقد وقف وسأل عن ذلك . ولما علم أنه المرض ، وأن كل إنسان عرضة له وأنه هو نفسه ، وهو الأمير القوى السعيد ، قد يمرض فى غده ، لم يطق متابعة سيره وعاد ثانية إلى قصره ليتدبر ويبحث عن عزاء ويرجح كذلك أنه أصاب عزاء ، فقد خرج يتنزه للمرة الثالثة . ولكنه فى هذه المرة وقع على منظر جديد ؛ فقد أبصر رجالا يحملون شيئاً ما ، فسأل ماذا يكون ؟ ولما أخبر أنه رجل ميت قال متعجباً : ميت ؟ وما الميت ؟ وأخبر أن الإنسان إذا أصبح مثل ذلك الرجل صار ميتاً . فدنا الأمير من الجثة وكشف عنها غطاءها ونظر فيها وسأل ماذا يحدث بعد ذلك ؟ فأخبر أنها سوف تدفن فى الأرض واستفهم عن سبب ذلك فأجيب : لأن الميت سوف لا يعود إلى الحياة وسوف يتعفن وينتج الدود . وسأل الأمير أذلك حظ الناس جميعاً ؟ وهل يحدث لى مثل هذا ؟ وهل أدفن وأتعفن وأنتج الدود؟ أتقول نعم ؟ إذن فإلى القصر . ولن أخرج بعد ذلك أبداً طلبا للمتعة.

ثم إن سكياموني فقد كل عزاء ، وأيقن أن الحياة أعظم شر ، وجعل همه كله أن يتخلص منها ويخلص غيره » .

هكذا تُصور الحكمة الهندية الحياة وهكذا يراها تولستوى، ولقد فكر كثيراً فى أن يتخلص منها ...

ولكنه يرى كثيراً غيره من الناس يعيشون لا تزعجهم الحياة ولا يكربهم التفكر فيها ، فإذا كان لم يجد فى العلم هداه ولا فى الفلسفة ، أفلا ينظر فى حياة الناس ليرى كيف يرضون ولا يشقون مثل شقائه ؟

وعرف من الناس فى الحياة أربعة أنماط : فريق هم الجهلاء الذين لا يدرون أن الحياة عبث وسخف ، وليس له فى هؤلاء فائدة ؛ لأنه لا يستطيع أن يعود جاهلا . وفريق يعلمون سخفها ، ولكنهم مع علمهم يوطنون أنفسهم على تحملها ، وهو لا يقدر أن يجاريهم فهو متبرم ساخط . وفريق هم الجادون العاملون الذين يتخلصون من الحياة على أية صورة ، وهو لا يستطيع أن يفعل فعلهم لأن شيئاً خفيا يمنعه من ذلك كما أعراه اليأس . وفريق يرون الحياة زوراً وعبثا وأن لا خير فى مستقبل ولا رجاء ، ومع ذلك فهم يتعلقون بها وإن تمذبوا ، وهو من هذا الفريق .

على أن هناك فريقاً خامساً لا يدخل فى هذه الأنماط الأربعة ، هم أولئك الذين لا يكترث لهم أحد ، وينظر إليهم السادة نظرتهم إلى الدواب ، وهؤلاء قد وجدوا لهم فى الحياة معنى يعيشون عليه ، معنى لا يتصل بالمعقول ولا بالفلسفة ، وذلك هو الإيمان .

ولكن إيمان هؤلاء يقوم على أساس من الأرثوذكسية عقيدة الكنيسة الروسية الإغريقية ، وهى ما لا يستطيع أن يحمل عقله على قبوله ...

يا للحيرة ! إن العقل يفضى به إلى إنكار الحياة نفسها ، وإن الإيمان يقتضى أن يعطل العقل ... أى بلاء هذا ؟ وأى ليل معتم !

ولكنه علم فيما علم قول المؤمنين إنه لا بد من إعداد النفس للإيمان حتى تؤمن ؛ وإذاً فليدع العقل جانباً ولينا قش رجال الدين ، ولينظر فى كلامهم لعله يصل إلى قلبه ، وليقرأ ما كتبه آباء الكنيسة ، وليطالع سير القديسين ، وليتعبد فيقيم الشعائر جميعاً ، وليزر الأديرة ، وليذهب إلى الأب الصالح أمبروز ، ذلك

الذى كان يستعينه جوجول والذى استعانه دستويفسكى وسولوفييف ؛ وفعل ذلك جميعا ولكن الشك ما زال يأخذ بخناقه ويكاد يزهق روحه ...

ويقرأ العقيدة الأرثوذكسية ، وكلما أمعن فيها سخر منها وبعد عن التصديق بها . فما هذا التثليث ؟ وما هذا التحول إلى دم المسيح ولحمه ؟ وما تلك المعجزات التى تنسب إلى القديسين ؟ وما تلك الأدعية والصلوات والطقوس ؟ أذلك مما يقبله العقل ؟ كلا ثم كلا

ثم يحاول أن يطرد الجحود من نفسه فربما كان الجحود هو ما يحول بينه وبين الإيمان . ويقول لنفسه دائما إنه مستعد لأن يؤمن . قال فى كتابه « اعتراف » يصف ذلك : « لقد اتجهت صوب الإيمان لأنى لم أجد شيئا خارجه إلا الخراب . وعلى ذلك فما دمت لا أستطيع أن أطرح عقيدتى جانبا فقد صدقت وخشعت . وقد أحسست فى قلبى من الفتوت والخشوع ما جعلنى أفعل ذلك . ثم إنى عدت فخشعت وازدردت الدم واللحم من غير سخرية فى نفسى رغبة منى فى أن أصدق ؛ ولكنى أذكر ما مر بى من صدمة وأرى ما ينتظرنى فيما هو قادم ، فلا أملك أن أظل مصدقا » .

وإذ يرى نفسه فى بحر لجى من الحيرة يسأل نفسه : ماذا يريد أن يعرف على التحديد ليلتمس السبيل إلى معرفته ؟ فيكتب على رقعة : لماذا أنا حى ؟ ماسبب حياتى وحياة غيرى من الناس ؟ وما هدف حياتى وحياة غيرى ؟ ماذا تعنى ثنائية الخير والشر التى أحسها فى نفسى ؟ ولماذا هى قائمة فيها ؟ وعلى أى وجه ينبغى أن أحيا ؟ وما الموت ؟ وأهم من ذلك كله وأكثره تعقيداً كيف أنجى نفسى ؟ ذلك أنى أحس أنى هالك ، فإنى أعيش ثم أموت ؛ وإنى أحب الحياة وأخاف من الموت ، فكيف أنجى نفسى ؟ »

وإذا لم يبق له إلا الدين والإيمان ، فأى إيمان ؟ إنه إذا قارن فى نفسه بين تلك الأوقات التى آمن فيها بالله وبين تلك التى أنكر فيها الله ، وجد الأولى نيرة فيها شفاء للنفس ، ووجد الثانية مظلمة فيها العناء ، ولكن الإيمان بالله شىء ، والإيمان بما تقول الكنيسة الأرثوذكسية شىء آخر ...

ولا يزال يطيل القراءة فى العقيدة الأرثوذكسية ، ولا يزال يقرأ الأديان جميعاً فى كتبها ، ولا يزال يزور الأماكن المقدسة علها توحى إلى نفسه الإيمان ، ومن ذلك مدينة كييف وما تزدحم به من كنائس وأديرة قديمة . ولا يزال يستفهم القسيسين والطيبين من الطاعنين فى السن من الناس . ولا يزال يقيم الشعائر ويعظمها . . ثم لا يعود من ذلك جميعاً بشىء إلا الجحود بما تقول الكنيسة .

تلك حال تولستوى وما صنع فى تلك السنوات التى أعقبت زواجه حتى أتم كتابه « أنا كارينينا » . ثم تلقى الضربة التى جعلته يتخبط فى الظلام ، والتى جعلته يلقى بعيداً بحبل كان فى متناوله مخافة أن يشنق نفسه ، ويجعل دون بندقيته قفلاً غليظاً كيلا يصوبها إلى قلبه . وما تلك الضربة إلا أنه بعد طول عنائه يرى الحياة لاشىء ، ولكم يزعجه اللاشىء ويوبق روحه ويرعزع فؤاده !

ولكن إذا كان لا يحب أن يقتل نفسه فما معنى أن يستسلم لليأس ؟ وكيف يحيا إذن ويطيق حياته إذا كان لا يرضى الموت ولا يرضى الحياة ؟

إذن فليجاهد على وعورة الطريق وبعد الشقة وظلمة المفازة ، ليجد معنى للحياة تراح له نفسه ، ويسعد به البشر . ولئن وقف به ما سلف من جهاده وقفة التائه الذى يخيفه الفضاء والظلام ، فلخيره له أن يمضى لعله يجد بعد الضلال هدى وبعد العذاب راحة . ولأن يتحمل وعثاء السفر مهما عظمت أهون عليه من هذه الوقفة التى تكاد تلقيه فى قرار سحيق ...

لقد قضى من عمره قرابة ثلاثين عاماً يعمل للفن ، فليقض ما بقى من عمره عاملاً على تقرير معنى الحياة ، وليس ما يمنع أن يكون الفن أداته فيما هو قادم إذا لزم الحال ...

وسوف يعمل تولستوى دائباً ناصباً ، حتى ليعد جهاده فى سبيل غايته من أروع فصول الكفاح فى خطى البشرية ، فليس أبلغ فى معانى البطولة من تحمل مثل ما سوف يلقاه من عذاب ، ولا من الصبر على مثل ما سوف يعترض له من صعاب . وسوف يغدو تولستوى فى تاريخ الفكر الحديث ، والأدب الحديث ، والفن الحديث ، بجهاده الهائل منقطع القرين فى إخلاصه وحميته وثباته . أجل ، وسوف يرتفع إلى منزلة وسط بين الأنبياء والناس .

محمود الخفيف